

ج ٣ : م ١ ١٥ ربيع الاول ١٣٤٣

الميراث العربي

كان أبو خالد النميري فى القرن الثالث للهجرة ، وكان ينتحل الأعرابية ، ويتجافى في الفاظه ويتبادى فى كلامه ، ويذهب المذاهب المنكرة فى مضغ الكلام والتشدق به ليتحقق أنه اعرابي وما هو به وإنما ولد ونشأ بالبصرة . قالوا فخرج الى البادية فاقام بها أياماً يسيرة ، ثم رجع الى البصرة فرأى الميازيب على سطوح الدور ، فأنكرها وقال : ماهذه الخراطيم التى لا نعرفها فى بلادنا ؟ . . .

فهذا طرف من العربية ، يقابله التاريخ فى زمننا بطرف آخر من جماعة قد رزقوا اتساعاً فى الكلام الى ما يفوت حد العقل أحياناً ، ووهبوا طبعاً زائغاً فى انتحال المدنية الاوربية الي ما يتخطى العلل والمعاذير ، ورأوا أنفسهم أكبر من دهرهم ودهرهم أصغر من عقلهم ، فتعرف منهم أبا خالد الفرنسي وأبا خالد الانجليزي وغيرهما ممن اجازوا الى فرنسا وانجلترا فاقاموا بهما مدة ثم رجعوا الى بلادهم ومنبتهم ينكرون الميراث العربي بجملته فى لغته وعلومه وآدابه ويقولون : ما هذا الدين القديم وما هذه اللغة القديمة وماهذه الاساليب القديمة ؟ ويشمرون جميعاً فى هدم أبنية اللغة ونقض قواها وتفريقها . وهم على ذلك أعجز الناس عن أن

صفحة من التاريخ

كيف امتازت الاباضية عن الخوارج ؟

المُحكّمة ، وهم الذين أبوا التحكيم في واقعة صِفّين ، كانوا قسما واحداً ، وفرقة متحدة ، إلى ان حصلت واقعة النَّهْرَوان . ثم ظهر بعد ذلك فريق يستبيح الدماء والاموال والسبي وكان برياسة نافع بن الأزرق ، فأعمل السيف والنهب ، وحكمُه على من خالفهم كفر الشرك ، لا فرق في الحكم بين المكلّف وغيره ، يستدلون لذلك بقول الله تعالى « وان أطعتموهم إنكم لمشركون » . قالوا : ان أطعتموهم فى أكل الميتة انكم لمشركون ، فأثبتوا بهذا ان الكبيرة شرك ، سواء أكانت خللاً فى الاعتقاد أو فى العمل ، والشرك مبيح للدم . واستدلوا على كفر الاطفال أيضاً بقوله تعالى حكايةً عن نوح عليه السلام « رَبِّ لا تَذَر على الارض من الكافرين دَيّارا . إنك ان تَذَرْهم يُضِلّوا عبادَك ولا يَلِدوا إلا فاجراً كَفّارا »

رسخت هذه العقيدة فى قلوبهم واستماتوا فى سبيلها وتطبيقها على من عداهم ، فكان ما كان من الخَطْب الجلَل . والظاهر أن أمر هذا الفريق كان يتكوّن تحت الخفاء قبيل واقعة النهروان ؛ فقد روي أن مسعر بن فَدَكي خرج من البصرة فى عصابة ، فمرّوا على قرية فيها عبد الله بن خبّاب بن الارَتّ (١) رضى الله عنه ، فأخبره مسعرٌ بالتحكيم ، فقال له عبد الله بن خبّاب :

— ان أبى أوصانى اذا وقعت الفتنة أن ألزم بيتي

فقال له مسعر : — ان الله أوصانا بغير ما أوصاك به أبوك فقال « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة »

---

(١) أبو عبد الله خباب بن الارت بن جندلة بن سعد بن خزيمة التميمى من السابقين فى الاسلام شهد بدراً ثم نزل الكوفة ومات سنة ٣٧ هـ

فقتلوا ابن خباب وبلغوا النهروان، فتبرأ أهل النهروان من مسعر وأصحابه، وهمُّوا بقتله، ففرّ منهم هو وأصحابه

وقد تفرّع من الأزارقة فرق الصفرية والنجدية ومن نحا نحوهم، وعقيدة الجميع واحدة وهي الحكم بكفر الشرك على من خالفهم

حينئذ ظهر الامام الاعظم أبو الشعثاء جابر بن زيد أحد كبار فقهاء التابعين، وصاحبُه الامام عبد الله بن إباض المرّي التميمي وأصحابهما، ناقمين على الازارقة، ووقعت لكلٍّ من الامامين مناظرات كثيرة معهم. منها أن أبا الشعثاء أتى الخوارج يوماً فقال لهم:

— أليس قد حرّم الله دماء المسلمين بدين؟

فقالوا: — نعم

فقال: — وحرّم الله البراءة منهم بدين

فقالوا: — نعم

فقال: — أو ليس قد أحلّ الله دماء أهل الحرب بدين بعد تحريمها بدين؟

فقالوا: — بلى

فقال: — وحرّم الله ولايتهم بدين بعد الامر بها بدين

فقالوا: — نعم

فقال: — هل أحلّ ما بعد هذا بدين؟

فسكتوا

وكان أبو الشعثاء الملجأ الأكبر للاباضية، والطودَ الاشمّ. وهو الذي يصدرون عنه في امورهم وأخذ عنه خلقٌ كثير: منهم من بقي بالبصرة وغيرها تحت نفوذ بني أمية [1]. ومنهم من خرج الى عُمان، وانتشر بهم العلم في الاقطار التي نزلوها

(١) ربما أطلق الخوارج على الاباضية اسم «القعدة»، لانهم خالفوهم في قتال أهل التوحيد وان شاركوهم في انكار المنكر

وممن رأس بعد أبي الشعثاء أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي ، وعنه أخذ حملةُ العلم الذين جاءوا الى المغرب بعد الداعية الاكبر سلمة بن سعد

وانما انتسبت الاباضية ـ وهم الذين نريد ذكر موجز من تاريخهم ـ الى عبد الله بن إباض تمييزاً ؛ لما اختص به هذا الامام من قوة الحجة ، والعزّة والمنعة في قومه

وقد جرت بين الامام عبد الله بن إباض وبين عبد الملك بن مروان مكاتبات فيما نقم هو وأصحابه على بني أمية . وكان كثيراً ما يبدي النصائح لعبد الملك

وكان عبد الله بن إباض يصدر في أمره عن أبي الشعثاء جابر بن زيد وهو بالبصرة وفيها اذ ذاك أصحابه أئمة العلم والدين : كضمام بن السائب ، وحاجب الأزدي ، وقتادة ، والحسن البصري ، وأبي بلال مرداس ، وصحار بن العباس العبدي [1] ، والاحنف بن قيس ، وإياس بن معاوية ، وأبي عبيدة مسلم ، وأضرابهم

فالاباضية لا يحرّمون التناكح بينهم وبين غيرهم من أهل القبلة ، ولا الدفن في مقابرهم ، ولا يكفّرون شركاً أهل الكبائر العملية ، بخلاف الخوارج . ولذا كان من المقرّر عندهم وجوب الفرق بين الكبائر : كبائر الشرك ، وكبائر الفسق وتسمى عندهم بكبائر النفاق . وعندهم ان التوحيد عاصم للدم والمال الا بحقها

ولما اشتدت وطأة بني أمية فسفكوا الدماء بالبصرة توطيداً لنفوذهم في الامة ، وتوحيداً لسلطتهم ، بواسطة عاملهم الحجاج بن يوسف انحاز معظم الاباضية المحقة الى عُمان فكان بها سلطانهم وشوكتهم

وقد وقعت بينهم وبين بني أميـة وقائع ، لان من شعار بني أمية اتخاذ كل وسيلة لتعميم نفوذهم في جميع أقطار الاسلام وشعوبه ، وكانت الحرب بينهم

(١) كان من النسابين وله تأليف في (أمثال العرب)

سجالا ، انتهت لبني امية الى زمن أبى العباس السفاح ، فاسترجع الاباضية استقلالهم ، ونصبوا الائمة فى عُمان يقيمون الحدود ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وقد أقاموا فيها منار العدل ، فكانت تلك الفترات القليلة التي تغلَّب فيها بنو امية حلقة صغيرة انقطعت من سلسلة استقلال الاباضية بعمان ، إلى أن بايعوا الجَلَنْدَى بن مسعود بن جيفر بن جلندَى ، وهو آخر بني الجلندى ابن المستكبر بن مسعود بن الحرار بن عبد عزّ بن معولة بن شمس ملوك عُمان بعد أولاد مالك بن فَهم . ولم يزل عمان بيد أهله الى يومنا هذا

وفى مدّة الجلندَى هرب الى عُمان شيبان الخارجى ـ إمام الصفْرية ـ من أبى العباس السفّاح ، ولما انتهى الى عمان أخرج اليه الامامُ الجلندى هلالَ بن عطية الخراسانى فى قوة من الجند وفيهم يحيى بن نجيح — وكان من خيار المسلمين مشهوراً بالفضل والصلاح — فدعا بدعوة أنصفَ فيها الفريقين حين تَصافَّا ، قال :

« اللهم ان كنتَ تعلم أنَا على الدين الذى ترضاه ، والحق الذى تحبُّ ان تؤتَى به ، فاجعلنى أوَّلَ قتيل من أصحابى ، ثم اجعل شيبان أوَّلَ قتيل من أصحابه واجعل الدائرة على أصحابه . وان كنتَ تعلم أن شيبان وأصحابه على الدّين الذى ترضاه والحق الذى تحبُّ ان تؤتى به ، فاجعل شيبان أول قتيل من أصحابه »

فأمَّن الفريقان . ثم زحف بعضهم الى بعض ، فكان أولَ قتيل من المسلمين يحيى بن نجيح ، وشيبانُ أولَ قتيل من أصحابه ؛ فتمكن الاباضية من أصحابه ، واستولوا عليهم ، فكان ذلك آخر أمرهم ولم تقم لهم قائمة ، ولا بقيت للصفرية بقية منذ ذلك اليوم على مايظهر

القاهرة أبو اسحاق : ابراهيم اطفيش

قال معاوية لصُحار العبدي : ما هذه البلاغة التي فيكم ؟

قال : — شيء تجيش به صدورنا ، فتقذفه على ألسنتنا

البيان والتبيين ١ ٣٥ و ٣ : ٢٠٦